وظيفة الأمثال العربية
في
تفسير النصوص القرآنية

الباحث

د. إسماعيل رديف يوسف محمد العبيدي

جامعة الأنبار

كلية التربية للعلوم الإنسانية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد و آله الاطهار وأصحابه الغر الميامين.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ (١).

أما بعد:- فإن من نعم الله علينا أن يستخدمنا في طاعته وخدمة دينه، فله الحمد كله ، دقه وجله، علانيته وسره، وإن من أجل النعم نعمة الاشتغال في علوم الشريعة، ومن اشرفها علوم القرآن، والتفسير وما يلحق بهما .

ومن هذا المبدأ وجدت أن أفضل عمل ينفعني عند الله ويقربني إليه هو العمل بكتاب الله تعالى قراءةً وتدبراً، وإستخراجاً لدرره و لآلئه، و إنتفاعاً بأحكامه و فوائده، واستضاءةً بنوره وهديه، وتسليةً بأخباره وقصصه، وقد انزله الله تعالى دستوراً للأمة، ومنهج حياة، وجعل إستقامة العبد وسعادته في التمسك به واتباعه، وشفاءه وهلاكه في الزيغ والاعراض عن هديه.

وقد أهتم علماء الامة بالقرآن الكريم منذ عصر النبوة والى وقتنا هذا، فلم يخلو عصر من العصور، ولا بلد من بلدان المسلمين من خادم لكتاب الله، ما بين مفسر لكلماته موضح لغريبه، أو منشغل بإعرابه وتصريفه، أو جامع لأسباب نزوله أو موضح لناسخه ومنسوخه، أو مفسر لآياته عموماً، كما اهتم آخرون بإفراد بعض موضوعات القرآن الكريم بالتأليف، في مواضيع شتى وفي عدة مجالات وكذلك في هذا العصر، فقد كُتِبت آلاف الاطروحات والبحوث في دراسة علوم القرآن الكريم. وفي هذا البحث المتواضع إضافة جديده في خدمة كتاب الله تعالى قمت بها مبيناً وظيفة الامثال العربية المشهورة في تفسير النصوص القرآنية موضحاً جهود أعلامنا من المفسرين في

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان(٧٠-٧١).

توجيه وتعزيز معاني الآيات القرآنية بالأمثال العربية منطلقين من أهمية الأمثال في لغة العرب لمكانتها الرفيعة التي تتمتع بها، لما لها من دور بارز في الاقناع، وسرعة الفهم، وإزالة اللبس والاشكال، وإن فضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل تعالى على سائر خلقهِ .

وقد لاحظت أن الكثير من الباحثين قديماً وحديثاً كتبوا في الأمثال في جمعها وشرحها ودورها في تقريب المعاني واختصار الكلام، وكذلك نجد العشرات من العلماء والباحثين كتبوا في أمثال القرآن الكريم من حيث دلالتها العميقة، وإبراز الحقائق الإيمانية، وما يستفاد منها في الاعتبار، والإدكار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل .

لكني لم أجد لحد الان من كتب في بيان وظيفة الامثال العربية في تعزيز معاني الآيات لدى المفسرين؛ لذلك جاءت هذه الورقات لتسلط الضوء على أهمية الأمثال ووظيفتها في تفسير النصوص القرآنية ودور المفسرين في تعزيز معاني الآيات بالأمثال وقد إشتمل البحث بعد مقدمته على مبحثه، المبحث الاول منها إشتمل على ثلاثة مطالب تضمنت معاني الامثال تفسيراً و اصطلاحا، واهمية الامثال العربية المشهورة وكذلك موقف المفسرين من الامثال العربية، و أما المبحث الثاني فقد تناول وظيفة الأمثال في تفسير النصوص القرآنية مستشهداً بِبعض الأمثلة لبيان ذلك؛ وذلك لضيق المقام، وإلا فالأمثال التي إستشهد بها المفسرون في تفسير الآيات الكريمة كثيرة جداً، ثم جاءت الخاتمة في نهاية البحث لتأتي بالخلاصة لما كتبته هذا ما وفقني الله سبحانه وتعالى لهُ، فإن أصبت فمن الله عز وجل وحده ، وإن أخطأت او جنحت او أُنسيتُ فمن نفسي ومن الشيطان، وأسأله تبارك وتعالى أن يكون قد وفقني للخير والصواب، و أبعد عني الشر والخطأ ، وأن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وينفع به، فهو الله تعالى وليُّ ذلك والقادر عليه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

الباحث

ملخص البحث باللغتين العربية و الانجليزية

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة واتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن هذا البحث بعنوان(وظيفة الأمثال العربية في تفسير النصوص القرآنية)، وقد ركز البحث على دراسة دور الأمثال العربية عند المفسرين في تفسيرهم للآيات القرآنية ، وإستشهادهم بها في توجيه وتعزيز معاني الآيات التي يتعلق بها المثل. وقد أشتمل البحث بعد مقدمته على مبحثين، تضمن المبحث الأول ثلاثة مطالب، تناولت فيها تعريف الأمثال لغة وإصطلاحاً ، وأهمية الأمثال العربية، وموقف المفسرين منها . وأما المبحث الثاني، فقد أشتمل على ستة مطالب تضمنت دراسة بعض الأمثال العربية، ووظيفيتها في تفسير وتوجيه معاني الآيات القرآنية ثم جاءت الخاتمة وفيها أوجزت ما فصلته وبينت أهم النتائج.

الباحث

Abstract

All Praise And Thanks Are Allah's The Lord Of Alamin And Peace Be Upon Mohammed And All His Companions.

This Research Entitled The Function Of Arabic Proverbs In The Interpretation Of Qur'anic Texts. The Research Concentrate On The Role Of Arabic Proverbs By Interpreters In Their Interpretation Of Qur'anic Ayahs , Taking Them As Evidence In The Direction Of Ayahs Meanings, In Which The Proverb Is Associated. The Research Comprises, In Addition To The Introduction, Two Sections. The First Section Comprises Three Queries . I Discussed In It The Definition Of Proverbs Both Linguistically And Idiomatically And The Importance Of Arabic Proverbs And The Attitude Of The Interpreters Towards Theme. The Second Section Comprises Six Queries Which Include The Study Of Arabic Queries And Their Function In The Interpretation And Directing The Meanings Of Qur'anic Ayahs, In The Conclusion, I Summarized. What Was Detailed And Pinpointed The Findings Of The Study.

The Researcher

المبحث الاول

" وظيفة الامثال العربية في تفسير النصوص القرآنية "

المطلب الاول

تعريف الامثال لغة و اصطلاحا

المثل في اللغة:- إن للفظ (المثل) معاني مختلفة، كالنظير والصفة والعبرة وما يجعل مثالاً لغيره يحذى عليه إلى غير ذلك من المعاني[١] .

والمِثْلُ بالكسرِ والتحريك : الشِّبْهُ ، والجمع أمثال ، والمثَلُ – محركة – الحِجةُ ، الحديث ، وقد مثَّلَ بهِ تمثيلاً و أمتثلهُ و تمثلهُ وبهِ والصفةُ ، ومنهُ (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي) [٢] .

وتمثل بالشيء : ضَرَبَهُ مَثَلاً ، والمثالُ : المقدارُ والقِصاصُ وَمنة الشيء.

والجمع : أَمَثَلَةٌ وَمُثُلٌ، إلى غيرِ ذلك من المعاني [٣].

قالَ أبنُ فارس " (مثل) الميم والثاء واللام أصلٌ صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثلُ هذا أي نظيرهُ، والمُثلُ والمثال في معنى واحد، وربما قالوا :مثيل كشبيه – تقولُ العرب أمثل السلطان فلاناً : قَتَلَهُ قوداً، والمعنى انه فعَلَ بِهِ مثل ما كان فَعلَهُ، والمَثَل : المِثْلُ أيضاً، كشِبه وشِبْه، والمثل المضروبُ مأخوذٌ من هذا، لأنهُ يُذكر مورَّى به عن مِثْلِهِ في المعنى"[٤].

---

(١) ينظر لسان العرب (٢٢/١٣)، مادة مثل لمحمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري، دار صادر، بيروت السلفية، مصر، ط٢ _١٣٩٩هـ .

(٢) سورة محمد الآية(١٥).

(٣) القاموس المحيط (٤٩/٤) مادة مثل، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان .

(٤) معجم مقاييس اللغة (٢٩٦/٥)، أبو الحسين احمد بن حنبل بن فارس بن زكريا، تحقيق عبدالله محمد بن اكرم، دار الفكر، سوريا، دمشق، (١٣٩٩هـ – ١٩٧٩ م).

وقد تكرر في كلام غير واحد من أصحاب المعاجم أن المَثَل والمِثْلَ سيان، كالشَبَه والشِبْه، ومع ذلك كله نرى ان القرآن ينفي المثل لله، ويقول تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] وفي الوقت نفسه يُثَبتْ لهُ المَثل ويقول ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2].

والجواب : انه لا منافاة بين نفي المِثل لله واثبات المَثَل له.

فالمثلُ نعوت محمودة يُعرف بها الله سبحانه وتعالى، كأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وعلى هذا المَثَل في هذه الآية وما شابهها بمعنى ما يؤمن به الشيء ويعبر به عنه، من صفات وحالات وخصوصيات ومنه يعلم ان الامثال إذا كان مِثل بالسكون فالله سبحانه وتعالى مُنزه من المثْل والأمثال.

وأما إذا كان جمع مَثَل – بالفتح – بمعنى الوصف الذي يحمد به سبحانه وتعالى ، فله الامثال العليا والاسماء الحسنى.

تعريف المثل في الاصطلاح

المَثَلُ : قال ابن السكيت :– "المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، يُشبِهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره"[3].

والمَثَلُ:" قسم من الحكم، يرد في واقعة لمناسبة اقتضت وروده فيها، ثم يتداولها الناس في غير واحد من الوقائع التي تشابهها دون أدنى تغيير لما فيه من مجازة ودقة في التصوير"[4].

وبصورة أوضح المثال:– هو جملة مستدلة على موقف ما حدث في الماضي، تتكون من عدة كلمات تصف وضعاً أو موقف ما يحدث في الماضي، أو بمعنى آخر تشبيه لموقف ما يحدث شهير بالماضي تناقلته الالسن عبر التاريخ .

يقول المبرّد: فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الاول .

كقول كعب بن زهير

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيلُ

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد[5].

وعلى ذلك فالمثل السائر كقوله:((في الصيف ضيّعتِ اللبن))علم لكل من ضيع الفرصة وأهدرها[1].

وأهدرها[1].

---

(١) سورة الشورى، الآية(١١).

(٢) سورة النحل، الآية (٦٠) .

(٣) مجمع الامثال، ج١ ص٦، لأبي الفضل احمد بن محمد الميداني، ط ٦، دار المعرفة، ت /محمد محي الدين.

(٤) البيان في أمثال القرآن، ص١٤، إعداد محمد بن صلاح الشوارقي .

(٥) ينظر مجمع الامثال للميداني ، ج١– ص٦.

(١) ينظر المصدر نفسه، ج١– ص٦ .

المطلب الثاني

أهمية الامثال العربية

إن الامثال العربية القديمة من أقدم الاشكال الفنية واللغوية التي تحمل دلالات حضارية ووجوها من المشترك في وعي العرب، وتصورهم عن الكون، وعن علاقات البشر، وقد سجلوا – أَي العرب – في الأمثال شعورهم وتفكيرهم بتكثيفٍ وإيجاز فيما يشبه القوانين النافذة أو السائرة التي لا يملك الفرد لها رداً؛ فلجأ اليها لفهم الظواهر التي يواجهها في حياتهِ، لأن فيها خلاصة الخبرة وأنماط الوعي المشترك والمعرفة المبكرة. كما أن العرب لم يتركوا الأمثال وراء ظهورهم، بل عنوا بها عنايةً كبيرة، وأفردوا لها كُتباً ومصنفات كثيرة كرسوها لتدوين الأمثال أو تبويبها وشرحها وتعدادها قد يصل الى عشرة الاف مثل. وهكذا فإن للأمثال في لغة العرب مكانة رفيعة، لما لها من دور بارز في الاقناع، وسرعة الفهم، وإزالة اللبس والإشكال، كما ان لها أهمية في حفظ تراث الامة، فقد نقل لنا الزمخشري قوله في الامثال:((هي قصارى قصاصة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حكمتها، وبيضة منطقها، وزبدة حوارها، وبلاغتها التي أعربت عن القرائح السليمة ، والركن البديع الى ذرابة اللسان وغرابة اللسن، حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المعنى، ولوحت فأغرقت في التصريح، وكنَّت فأغنت الى الإفصاح))[1]. وبهذا كشف الزمخشري جوانب مهمة في دراسة الأمثال، ويدعو إليها من خلال إشارته الى أنها منبع الفصاحة لدى العرب، و ترمز الى جوامع الكلم وبلاغته ، و تشتمل على الحكمة البالغة ، وبراعة المنطق في التفكير، إضافة الى الايجاز دون الإخلال بالمعنى ، والقصر في الجمل المسوقة فيها.

وقد شغل العلماء القدامى بتأليف كتب الامثال، ويفصح تناولها بالدرس والتحليل، والشرح والتفسير، إدراكاً منهم لأهميتها، وأهمية البحث فيها، وكذلك تبرز أهمية الأمثال من خلال إبرازها الكلام والمعاني الدلالية المرادة، وإنها تكسو الكلام الطلاوة والجمال وترفع من قدر الكلام، وتحرك النفس لحفظها، وتدعو الخاطر لتداولها، وتعلق في النفس لسهولة لفظها.

---

(١) المستقصى في أمثال العرب ، ص٢ .

المطلب الثالث

موقف المفسرين من الأمثال العربية

لقد لاحظت من خلال كتابتي لهذا البحث أن أكثر التفاسير قد حفلت بكثرة الاستشهاد بكلام العرب، سواءً كان نثراً أم شعراً أم مثلاً ضمن الأمثال المشتهرة عند العرب منذ قديم الزمان، منطلقين بذلك – أي المفسرون – من مبدأ أن كتاب الله عز وجل إنما نزك بلغة العرب وكلامهم، وما ألفوه من استعمالهم اللغوي؛ وعلى هذا الاساس أكثر المفسرون من شواهد الأمثلة العربية في كثير من التفاسير في توجيه معاني الآيات وتعزيزها، وسيلاحظ القارئ لهذا البحث كثرة الاستشهاد بالأمثال العربية المشهورة؛ وما ذلك إلا لأهمية هذه الأمثال لدى المفسرين في توجيه معاني الآيات توجيهاً واضحاً، ولنأخذ بعض الشواهد من الأمثلة العربية التي إستشهد بها المفسرون، وعلى سبيل المثال نجد الإمام الطبري رحمه الله لم يكتف بالنثر والشعر في الإستشهاد في تفسير الآيات، بل يتعدى ذلك إلى الإستشهاد بالأمثال العربية، فقد إتخذ الطبري من قوله تعالى:﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾[1] ، وهو من الأمثال التي ضربتها العرب لمن يرجو ما لا يحصل دليلاً ومستنداً إلى تفسير وتوجيه الآية معززاً ذلك الدليل بشاهدين شعريين، قائلاً: "والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض على الماء. قال بعضهم [2] فإني وإيّاكم وشوقاً إليكم كقابض ماءٍ لم تسفه أنامِله".

يعني بذلك:– انه ليس في يده من ذلك إلا كما في يد القابض على الماء؛ لأن القابض على الماء لا شيء في يدهِ . وقال أخر[3] :

فأصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القابض على الماء باليد[4].

---

(١) سورة الرعد، الآية(١٤).

(٢) البيت لضابي بن الحارث البرجمي ، ينظر: خزانة الأدب وغاية العرب ٨٠/٤ للمؤلف: إبن حجة الحمدي تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبدالله الحمدي الأزاري المتوفي (٨٣٧هـ) .

(٣) ينظر مجاز القرآن ٣٢٧/١ .

(٤) جامع البيان في تأويل آي القرآن، ١٧٠/١٣ .

وليس الطبري وحده مما إستشهد بالأمثال في تفسير الآيات، بل نجد أغلب المفسرين قد نحوا نفس المعنى كالزمخشري والقرطبي والبيضاوي والشوكاني و إبن كثير والماتريدي و إبن عاشور وسيد قطب والشعراوي والطنطاوي والزحيلي والسعدي وغيرهم كثير؛ وما ذلك إلا لأن العرب قد اعتنوا عناية فائقة بضرب الأمثال؛ لما لها من أهمية في إيضاح المعاني ، وتقريباً الى ذهن السامع، مما يؤدي الى سرعة الفهم ، ووضوح الأمر.

ومما يدل أكثر على عناية العلماء والمفسرين بالأمثال العربية وأهميتها أنهم وصل بهمم البحث بها أنهم يخرجون أمثال العرب والعجم من القرآن ، فقد اورد جلال الدين السيوطي – رحمه الله – من قوله في الإتقان:((قال الماوردي، سمعت أبا إسحاق بن مضارب بن إبراهيم، يقول: سمعت ابي يقول: سألت الحسن بن الفضل ، فقلت إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله "خير الامور اوسطها"؟ قال: نعم، واورد آيات تتضمن معنى المثل، منها قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[١]. وقوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [٢]، قلت : فهل تجد في كتاب الله عز وجل (إحذر شر من أحسنت إليه)، قال: نعم ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٣] ، قلت: فهل تجد في كتاب الله عز وجل (ليس الخبر كالعيان)، قال: نعم. قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[٤] قلت : فهل تجد (الحركات البركاتُ) قال: في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾[٥]))[٦] . ومن خلال ما تقدم تبين لنا مدى أهمية الأمثال لدى المفسرين وانهم لم يستغنوا عنها في الاستشهاد بها في تفسير وتعزيز الآيات ذات الصلة بها.

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٦٧) .

(٢) سورة الإسراء، الآية (٢٩) .

(٣) سورة التوبة، الآية (٧٤) .

(٤) سورة البقرة، الآية (٢٦٠) .

(٥) سورة النساء، الآية (١٠٠).

(٦) الإتقان في علوم القرآن، ج٢ ص٣٤٦.

المبحث الثاني

وظيفة بعض الأمثال العربية في تفسير النصوص القرآنية

و فيه تمهيد وستة مطالب

- المطلب الأول: الوسط و الاعتدال
- المطلب الثاني: في بلوغ أقصى الشدة في الكفر والظلم والعناد
- المطلب الثالث: ظلم الإنسان نفسه
- المطلب الرابع: القصد
- المطلب الخامس: الجزاء بالمثل
- المطلب السادس: الشهادة

المبحث الثاني

وظيفة بعض الأمثال العربية في تفسير النصوص القرآنية

تمهيد

لقد بينت أهمية الأمثال العربية عند العرب وكيف كانت قد إتخذت حيزاً لا يستهان به في لغة العرب، وكانت جزءاً من ثقافتهم، وكذلك موقف المفسرين القدامى والمعاصرين في الإستشهاد بالأمثال العربية في تعزيز معاني الآيات وتوجيهها، ولكي تتوضح أهمية ذلك اكثر حاولت أن أسلط الضوء على بعض الأمثلة العربية في هذا المبحث، ووظيفتها في توجيه الآيات، وكيف وجه المفسرون ذلك في تفسير الآيات. وقد تضمن هذا المبحث ستة مطالب وكما يلي :

المطلب الأول

الوسط والإعتدال

لقد رسم القرآن الكريم للعالمين منهجاً وسطاً في شتى جوانبه أصولاً وفروعاً، عقيدة وعبادة، خلقاً وسلوكاً، تصوراً وعملاً،((والوسط والاعتدال خصلتان ممدوحتان اذا وجدتا في المرء دلتا على حسن سيرته، وكمال عقله، وهما سياجه الوحيد عن دفع ما يتسرب اليه من ضرر، وصد ما يلحقه من قدح)) [١].

المثل المستخدم: خير الأمور أوسطها

دلالته: يضرب هذا المثل دائماً في التوسط بين شيئين، وفي التوسط إيضاً في التمسك بالاقتصاد، قال إعرابي للحسن البصري:- علمّني دينا وسوطاً لا ذاهباً فرُوطا، ولا ساقطاً سَقُوطا، فقال: أحسنت يا إعرابي، خيرُ الامور اوسطها[٢] .ويروى هذا المثل على أنه حديث عن النبي(صلى الله عليه وسلم)[٣] .ويضرب ايضاً في توسط الأمور بين الغلو والتقصير كما في وصية مطرف بن الشُخير لإبنه:((يا بني إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، فإن الحسنة بين السيئتين، وخير الأمور أوسطها، وشر السير الحقحقة، وإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى))[٤].

---

(١) إتمام فتح الخلاف في مكارم الاخلاق، ص١٢٥.

(٢) ينظر مجمع الأمثال للميداني، ج١، ص ٢٤٣.

(٣) الحقيقة أنه لم يصح عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) _ وإنما هو من أقوال الحكماء، كما قال الحافظ العراقي في تخريج الأحياء: أخرجه البيهقي في شعب الأيمان من رواية مطرف بن عبدالله معضلاً، ٢٦١/٥ . رقم ٦٦٥/ .

(٤) شرح المقال في كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: عبدالحميد قطاش، الطبعة الأولى ، دار المأمون، دمشق.

الآيات التي يتعلق بها المثل

١-قوله تعالى:﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[١].

٢-قوله تعالى:﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾[٢] .

٣-قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[٣].

٤-قوله تعالى:﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٤].

٥-قوله تعالى:﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾[٥].

٦-قوله تعالى:﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾[٦].

دلالة الآيات

دلت الآيات أعلاه على الوسطية والإعتدال في كل أمور الدين والدنيا ((فمنهج الإسلام وسط بين أمرين، فلا تشديد فيه ولا تساهل ، ولا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو فيه ولا تعصب ولا تهاون ، يقرن في تشريعه بين المادة والروح، ويحرص على التوازن وتحقيقه في جميع الأمور، فيشرع ما يحقق التوائم والإنسجام بين مطالب الروح ومطالب الجسد، ويقيم التوازن بين مصالح الفرد والجماعة فلا رهبانية في الإسلام ، ولا تضيع مصلحة الفرد والأمة))[٧]، فلو أخذنا الآية الأولى وهي قوله تعالى: تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[٨] . فالوسط هنا العدل والخيار[٩]ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾[١٠] أي اعدلهم وخيرهم[١١] وقال الشاعر:

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٤٣).

(٢) سورة الاسراء ، الآية (٢٩).

(٣) سورة الفرقان ، الآية(٦٧).

(٤) سورة الفرقان ،الآية(٦٣).

(٥) سورة القلم ، الآية (٢٨).

(٦) سورة الاسراء ، الآية (١١٠).

(٧) التفسير الوسيط ، ج١، ص ٦٤.

(٨) سورة البقرة ، الآية (١٤٣).

(٩) ينظر زاد المسير في علم التفسير . ج١ – ص١١٩.

(١٠) سورة القلم، الآية (٢٨).

(١١) ينظر زاد المسير في علم التفسير ج١، ص١١٩.

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم ****** إذا نزلت إحدى الليالي بمعْظم[١]

وتقول وسط القوم وواسطة القلادة أنفس حجر فيها، والأمير وسط الجيش[٢] ، ولأن التوسط خير دائما، صار يطلق الوسط على الخير فيقال على أفاضل الناس أوساطهم وعن خيار الأمور أوساطها، وكل موضع فيه إصلاح أو صلح بين الناس يقال فيه وسط[٣] . وهكذا تبين لنا أن الوسطية تعني الخيرية و الأفضلية بالإضافة الى الأعتدال لأنه المقصد المهم الذي يجب أن يلتزمه المسلم في قوله وفعله، فلا يغلو أو يتطرف و لا يقصر أو يهمل، وكما أن الوسطية هي أساس السلوك القويم للإنسان في الحياة، فلو أخذنا فيما يخص إنفاق الإنسان في ماله و طعامه قال تعالى في كتابه الكريم:﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[٤] . وهذه صفة من صفات عباد الرحمن، أنهم يلزمون الطريق الوسط في حياتهم، وفي كل شأن من شؤنهم فلا إفراط، ولا تفريط، فإن خير الامور اوساطها وأكثر ما تجلى هذا المبدأ في إنفاق المال[٥] . ***والإسراف***:- هو هو مجاوزة الحد في زيادة المطلوب في النفقة والتقتير هو الإمساك دون الحد المطلوب[٦] . وقوله تعالى ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾. أي وكان إنفاقهم وسطاً، وقواماً بين الإسراف والتقتير[٧] ، ذلك لان الوسطية والإعتدال هي سياسة الإسلام المالية والإجتماعية الدينية[٨] . وهذا الإعتدال في الإنفاق قد قد أكدته آية اخرى وهي قوله تعالى:﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾[٩] . ففي هذه الآية الكريمة يرشد الله سبحانه عباده الى أفضل الطرق لإنفاق أموالهم والتصرف فيها، فقوله تعالى مغلولة من الغل – بضم الغين – وأصله الطوق الذي يجعل في

---

(١) المصدر نفسه، ج١ ، ص ١١٩.

(٢) تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ج١- ص٢١٩.

(٣) ينظر زهرة التفاسير ، ج١ ، ص٤٣٨.

(٤) سورة الفرقان ، الآية (٦٧).

(٥) ينظر التفسير القرآني للقرآن ، ج١٠ ، ص ٥٧.

(٦) المصدر نفسه . ج ١ ، ص٥٧.

(٧) المصدر نفسه . ج ١ ، ص٥٧.

(٨) ينظر التفسير المنير للزحيلي ،ج١٥،ص٦٠ .

(٩) سورة الاسراء، الآية (٢٩).

العنق، وتربط به اليد كما يربط المذنب والأسير وهو كناية عن البخل[١] . فغل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود[٢] . وقوله (محسورا) من الحسور بمعنى الإنقطاع عن الشيء، والعجز عن الحصول عليه[٣] . والمقصود من الآية الكريمة : الأمر بالتوسط والاعتدال في الإنفاق والنهي عن البخل والإسراف، فقد شبه سبحانه– مال البخيل : بحال من يده مربوطة الى عنقه ربطاً محكماً بالقيود والسلاسل ، فصار لا يستطيع تحريكها أو التصرف فيها، وشبه حال المسرف و المبذر بحال من مد يده وبسطها بسطاً كبيراً، بحيث أصبحت لا تمسك شيئاً يوضع فيها سوآء أكان قليلاً أم كثيراً والمعنى : كن– ايها الانسان – متوسطاً في كل امورك، ومعتدلاً في إنفاق أموالك بحيث لا تكون بخيلاً او مسرفاً ، فإن الإسراف والبخل يؤديان إلى أن تصير ملوما، أي مذموماً من الخلق والخالق، محسوراً اي مغموماً منقطعاً عن الوصول الى مبتغاك، بسبب ضياع مالك، واحتياجك الى غيرك[٤] . كما أن الوسطية مطلوبة ليست سلوكاً فحسب، بل مطلوبة حتى في العبادة، وهو ما يؤكد على ضرورتها في توازن صيرورة حياة الانسان على أهمية المكانة التي وصفها الاسلام للعبادات، وعلى رأسها الصلاة قال تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾[٥] . ولا تجهر بصلاتك أي بقراءة صلاتك بتقدير مضاف، أو تسمية القراءة صلاة ، لكونها من أهم أركانها ، كما تسمى الصلاة ركعة ولا تخافت بها أي تسر وتخفي، واتبع بين ذلك سبيلاً أي بين الجهر و المخافتة أمراً وسطا، فإن خير الأمور أوساطها [٦]. والآيات الدالة على الوسطية والإعتدال كثيرة، لكن لضيق المقام إكتفيتُ بعرض بعضها وبيان دلالتها .

وظيفة المثل :خير الأمور أوساطها

لاحظت من خلال معرفة دلالة المثل، ومعرفة دلالة الآيات الواردة، أن مضمون المثل تام الموافقة للآيات القرآنية آنفة الذكر، ونلاحظ أن أغلب المفسرين قد ذكروا هذا المثل

---

(١) ينظر تفسير الوسيط للقرآن الكريم ،ج ٨– ص٣٣٥.

(٢) ينظر الكشاف ، ج١،ص٦٥٥.

(٣) ينظر تفسير الوسيط الطنطاوي ، ج٨ ،ص ٣٣٥.

(٤) المصدر نفسه ج٨ ، ص ٣٣٥.

(٥) سورة الاسراء، الآية(١١٠).

(٦) تفسير محاسن التأويل،ج٦ ، ص٥٢٣، وروح البيان، ج٥ ، ص٢١٣، و إرشاد العقل السليم، ج ٥، ص٢٠٠.

في تعضيد مضمون معاني الآيات السابقة، وأن المثل قد صدر منهم إعتماداً على القرائن الموجودة في المقام وموافقة لمضامين للآيات المبحوثة ، فمثلاً عند ملاحظتي لتفسير القرطبي لقوله تعالى﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[1] ، يقول رحمه الله:((وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً لآخر أو عيالاً ونحو هذا، وألا يضيق أيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام، أي: العدل، والقوام في كل واحد بحسب عيالهِ وحالهِ وخفةِ ظهرهِ وصبرهِ وجلدهِ على الكسب، أو ضد هذه الخصال وخير الأمور أوساطها)) [2]، فإننا نجد أن القرطبي- رحمه الله- قد وظف المثل تماماً ووجههُ في مكانه عندما بين معنى الآية بعدم الإسراف وعدم التقتير على العيال أو على غيرهم قائلاً وخير الأمور أوساطها، فإن المثل هنا قد أشبع الآية معنى تاماً واضحاً رغم قصر عبارتهِ؛ مما يجعل القارئ يستوعب المعنى بسرعة، فما من آية من الآيات التي ذكرتها، وآيات كثيرة أخرى لم أتناولها في البحث لضيق المقام، إلا ونجد أن أغلب المفسرين قد جاءوا بهذا المثل بعد إعطاءهم معاني الآيات ودلالتها مضمنين دلالة الآيات بعبارة مختصرة وهي المثل، فقد جمع لكل ما سردوه من معاني لشرح الآيات فكان المثل عاملاً مهماً في تأدية وظيفته في معنى الآية بأوضح ما يكون، و بأخصر عبارة، وهذا لا يمكن أن نلمسه في غير ذلك من عبارات طويلة غير جامعة للمعنى المقصود .

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٦٧).

(٢) تفسير القرطبي ، ج ١٨ ، ص٢٧ .

المطلب الثاني

في بلوغ أقصى الشدة في الكفر والظلم والعناد

المثل المستخدم: بلغ السيل الزبى

دلالته :- يضرب هذا المثل عندما تصل الأمور ذروتها الى حد لا يمكن السكوت عليه ، فينفذ حينها الصبر؛ لأنه قد كان من غير المتصور أو المتوقع أن تصل الأمور الى ذلك الحد، فإذا حدث ووصلت إلى ذلك الحد، ففي هذه الحالة تكون قد فاقت التوقعات والحسابات، فلا يتحمل الصبر عليها، ولا يمكن السكوت عليها ، فالمثال يقال عند نفاذ الصبر أو تفاقم الأمور الى حد لا يمكن السكون عنه أو الصبر عليه[١] . والزبى: هو ما إرتفع من الأرض، وواحدة الزبى: زبية وهي حفيرة تحفر للأسد في موضع مرتفع إذا اصطيد[٢] . وأصلها الرابية لا يعلوها الماء ، فإذا بلغها السيل وكان جارفاً مجحفاً[٣] . وبمعنى أدق يضرب المثل لما جاوز الحد .

<u>الآيات التي يتعلق بها المثل:</u>

١.**قوله تعالى** :﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [٤].

١- **قوله تعالى:** ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [٥].

٢- **قوله تعالى** :﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾[٦] .

٣- **قوله تعالى** : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [٧].

---

(١) ينظر مجمع الأمثال للميداني ، ج١ ، ص ٩١.

(٢) كتاب الأمثال الهاشمي. ج١، ص٢٤٣ .

(٣) ينظر مجمع الأمثال للميداني ، ج١ ، ص٩١ .

(٤) سورة هود، الآية (٤٠).

(٥) سورة القمر، الآيتان (٩-١٠).

(٦) سورة ص، الآية (١٦).

(٧) سورة ص، الآية (٤١).

٤- **قوله تعالى:** ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (١).

٥- قوله تعالى :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾(٢) .

دلالة الآيات :

وقبل بيان دلالة الآيات لابد من القول إن من أعظم أسباب هلاك الأمم والمجتمعات هو الإستكبار في الارض الذي هو عدم قبول الحق معاندة وتكبراً، والاستكبار لغة: هو استجلاب الكبر والكبر هو العظمة (٣). وقد أشار القرآن الكريم إلى مجموعة من الخلايا والسجايا التي يتصف بها المستكبرون كالغرور والعناد والاضلال والوقوف بوجه الحق، وقتل الأنبياء، والسخرية منهم، وعدم قبول دعوة الحق التي دعا اليها الانبياء-عليهم الصلاة والسلام- التي أشار اليها القرآن الكريم على لسان نبيه نوح-عليه الصلاة والسلام- حينما قال في قوله تعالى:﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (٤).

والآيات مجال البحث تتحدث عن قصة نوح – عليه السلام – مع قومه، وأنه عليه السلام بذل غاية جهده في نصح قومهِ، و اجتهد في أن يتبعوه في الايمان بالله، والبعد عن عبادة الاصنام، ومكث على ذلك ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولكن ما زادهم ذلك إلا فراراً، وعتواً و إستكباراً، حتى ضاقوا به ذرعا، وضاق بهم ذرعاً، وكبر عليهم مقامه(٥) . ففي قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾. فقوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ " هو غاية لقوله تعالى (ويصنع الفلك) أي: وضل نوح يصنع الفلك، و ينتظر أمر ربه فيما صنع، حتى جاءه أمر الله، وقد فار التنور حين إتصل الماء النابع من الارض بالنار الموقودة في التنور. والتنور: هو مستوقد النار"(٦) . وعن إبن عباس:

---

(١) سورة هود، الآية (٤٣).
(٢) سورة يونس، الآية (٧١).
(٣) ينظر لسان العرب، مادة كبر.
(٤) سورة نوح، الآية (٤).
(٥) ينظر التفسير الواضح ، ج١، ص١٢٠.
(٦) التفسير القرآني للقرآن، ج٦، ص١١٤٠.

التنور هو وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماءً، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف [١]. وقيل معنى فار التنور التمثيل لحضور العذاب كقولهم : حمي الوطيس إذا اشتدت الحرب، والوطيس التنور[٢] . وهذا يدل أن العذاب قادم عليهم لا محال؛ لأنه قد بلغ بهم الاستكبار والضلال الى درجة لا تطاق، حتى ضاق بهم ذرعاً وضاقوا به ذرعاً. وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الضيق لنوح عليه السلام في قوله تعالى﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾[٣] ، أي دعا عليهم نوحا وقال ربِ (إني مغلوب) أي غلبوني بتمردهم (فانتصر) أي فأنتصر لي[٤] ، وكذلك الأمر بالنسبة لقومه الذين عاندوه وكذبوه، فرغم فوران الأرض عيوناً والتقاء ماء الأرض مع ماء السماء ، ومشاهدتهم للعذاب ضلوا على طغيانهم، وظنوا أنه سيول أمطار سرعان ما تنتهي، وكذلك الأمر بالنسبة لابن نوح، فقد وصل الغرور به والإستكبار، وتجاوزه أمر ربه متمثلاً في قوله تعالى:﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[٥] . يقول إبن نوح لأبيه عليه السلام بعد بعد أن قال له يا بني أركب معنا ولا تكن مع الكافرين: سألجئ الى جبل يعصمني من طغيان الماء، كأنه فهم أنه ماء من بحر أو نهر له حد محدود يقف أمام ربوة عالية أو جبل شامخ، فقال نوح رداً على كلامه وحجته الواهية: يا بني لا شيء في الوجود يعصم أحداً من أمر الله إذا نزل، ويرد قضاؤه إذا حكم، فهو وحده يعصمه ويحفظه، وقد جعل السفينة منجاة للمؤمنين، وبينما هم في هذا النقاش حال بينهما الموج فكان الابن من المغرقين[٦] .

فدلالة الآية (حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور) : تعني هنا اشتداد غضب الله تعالى على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس الى درجة من العناد والإستكبار لا تطاق، لذا كان من عدل الله ان ينزل غضبه عليهم؛ لأن تماديهم في الباطل وصل ذروته[٧] . وكذلك الحال في قوله تعالى

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج٧، ص٣٨.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن، ج٩،ص٣٤.

(٣) سورة القمر. الآية (١٠).

(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن، ج٩،ص٣٤.

(٥) سورة هود، الآية (٤٣) .

(٦) ينظر التفسير الواضح ، ج٢، ص١٢.

(٧) تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار) ،ج١٢، ص٦٤.

(فدعا ربه أني مغلوب فأنتصر) فقد دلت الآية أن الضيق والحزن وصل عند نوح منتهاه؛ بسبب عدم إستجابتهم، والسخرية منه إلى درجة جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكباراً، واستمروا على جبروتهم وضلالهم الى درجة أنهم يشاهدون العذاب، وهم مع ذلك مصرين على عدم الإستجابة بسبب العناد والتكبر، كما هو الحال مع ابنه وه على وشك أن يدركه الغرق، وفوق كل ذلك بلغت به الغطرسة أن قال كما قال تعالى﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[1] .

وإذا ما انتقلنا الى آيات أخرى من القرآن الكريم ذات علاقة بالمثل(بلغ السيل الزبى) مجال البحث، فإننا نجد نفس الشأن كما في قوله تعالى:﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[2] ،وهي دعوة أخرى الى النبي الكريم محمد(صلى الله عليه وسلم) من الله سبحانه وتعالى أن يذكر هذا الذي يذكره له ربه من أمر عبد من عباده الصالحين، ونبي من انبيائه المقربين، هو أيوب عليه السلام، والذي يدعو النبي- عليه الصلاة والسلام- الى تذكره و الوقوف على موضع العبرة و العِظة منه، من أمر أيوب -عليه السلام- هو ضراعته لربه، و لجوؤه اليه فيما مسه من ضر و أيوب عليه السلام – انما يقف على حدود الادب النبوي الرفيع حين يرفع الى الله تعالى شكواه مما به، و لا يسأل العافية، وكشف الضر، فذلك الى الله سبحانه وتعالى، حسب مشيئة الله و إرادته في عبده، فقد يكون البلاء خير له من العافية، و أنه كبشر يشكو إلى ربه ما يجد من آلام، ويفوض الأمر إليه فيما يريد به، ولو أنه إستطاع ألا يشكو لفعل، فالله سبحانه وتعالى أعلم بحاله، ولكنها أنّات موجوعٍ، وزفرات محموم: (أني مسني الشيطان بنصب وعذاب)، والنصبُ كالنصبِ وهو الرهق والتعب، والعذاب: الألم الناجم عن التعب[3] .

فأنت تلاحظ من خلال تفسير الآية أن أيوب عليه السلام أتاه من البلاء ملا صبر عليه، وأن صبره كاد ينفد، وأن شدته قد بلغت ذروتها فقوله: « (أني) أي ربِ أدعوك بسبب أني، ولما كان هنا في سياق التصبر عظم الأمر بإسناد الضر الى أعدى الأعداء إلهاباً الى الأجابة، وأدباً مع الله، فقال:(مسني) أي وأنا من أوليائك (الشيطان) أي المحترق باللعنة البعيد من الرحمة بتسليطك له

(١) سورة هود، الآية(٤٣).

(٢) سورة ص، الآية(٤١).

(٣) التفسير القرآني للقرآن، ج٦، ص١١٤٠.

(بنصب) أي ضر، ومشقة، وهم داء ووجع وبلاء يثقل صاحبه، فيتعبه ويقيده ويكده ويجهده ويصل به الى الغاية من كل ذلك، وقرئ بضم الصاد أيضاً، وقرئ بالتحريك كالرُشد والرَشد، وكان ذلك إشارة الى أحوال الضر في الشدة و الخفة فالمسكن أدناه، والمحرك أوسطه، والمثقل بالضم أعلاه (وعذاب) أي: نكد قوي دائم مانع من كل مايلذ، ويمكن أن يساغ ويستطعم أجمله، ونكره تنكير لتعظيم استغنائه على وجازته عن جمل طوال ودعاء عريض»[١].

وظيفة المثل : بلغ السيل الزبى

بعد بيان دلالة المثل ودلالات الآيات آنفة الذكر يتبين لنا أن موافقة المثل كانت موافقة لمضامين الآيات، وهذا ما لاحظته عند أغلب المفسرين لهذه الآيات، فأني و جدتهم يستشهدون بالمثل(بلغ السيل الزبى) كثيراً ويوظفونه في بيان أوضح لمعنى للآية، وذلك لوضوح المقصد من المثل تماماً رغم قصر كلماته، فمثلاً في الآية في قوله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، نجد أن ابن عاشور قد إعتمد على هذا المثل (بلغ السيل الربى) بعد أن بين دلالة الآية قائلاً: ((فصار التنور مثلاً لبلوغ الشيء الى أقصى ما يتحمل مِثْلُه، كما يقال: بلغ السيل الربى))[٢] . والزبية و الرابية لا يعلوها الماء، والزبية حفرة تحفر للأسد في موضع عالٍ لصيده[٣] . ذلك لأنهم بلغوا من طول مدة الكفر مبلغاً لا يغتفر لهم؛ بعد ذلك نفذ أمر الله فيهم[٤]. كما قال تعالى:﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٥]. فهنا نلاحظ أن المثل أدى وظيفته تماماً، وذلك بأن جاء مطابقاً تماماً لمعنى الآية بعبارة قصيرة شاملة للمعنى تجعل القارئ للآيات يفهمها فهماً راسخاً، فقد شبه فوران التنور وهو مثل لبلوغ الشيء إلى أقصى ما يُتحمل مثْلُه ببلوغ السيل الزّبى، وكما قلنا معناه وصول الأمور ذروتها إلى حد لا يمكن السكوت عليه، وكذا الحال بالنسبة لأمر الله وهو عذابه قد نفذ؛ لأن الكفار وصل بهم التكبر والعناد إلى أقصاه؛ فكان لابد من مجيء عذاب الله لهم؛ لأن بلغ السيل الزبى، وهذا لم يكن في توقعاتهم وحسبانهم وتصوراتهم بسبب بغيهم وتكبرهم. وإذا ما أخذنا مفسراً آخر وهو

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج١، ص٣٩٠ .

(٢) التحرير والتنوير، لأبن عاشور، ج١، ص٧١.

(٣) ينظر الكشاف ، ج٤ ، ص ٤٣٤.

(٤) ينظر المصدر نفسه ، ج١٢ ، ص٧١.

(٥) سورة الزخرف، الآية (٥٥) .

الزمخشري –رحمه الله– فإننا نلاحظ أنه قد وظف المثل نفسه توظيفاً كاملاً لآية أخرى ذات صلة بالموضوع، فبعد أن بين الله تعالى حال نوح عليه السلام، وهو يدعو على قومه بأن ينتصر الله له، بأن ينزل العذاب عليهم بعد أن دعاهم فلم يسمعوا له، وأستحكم اليأس من إجابتهم، فقال: قال تعالى ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾[1] . قال الزمخشري : ((إني مغلوب غلبني قومي، فلم يسمعوا مني واستحكم اليأس من إجابتهم لي فانتصر فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم، وإنما دعا بذلك بعد ما طم عليه الأمر وبلغ السيل الزبى))[2] ، فهنا نلاحظ أن الزمخشري جاء بالمثل (بلغ السيل الزبى) في موضعه تماماً مطابقاً للمعنى المقصود، فهو بعد أن بين تكذيب قوم نوح لنوح عليه السلام تكذيب إثر تكذيب ووصفه بالجنون، حتى الواحد من قومه كان يلقاه فيخنقه حتى يغشى عليه، كل ذلك يبين أن حال نوح عليه السلام وصل إلى درجة نفاذ الصبر وبلوغ الأمور ذروتها؛ لذلك دعا عليهم فجاء المثل (بلغ السيل الزبى) وافياً بالغرض في المعنى المقصود. وفي نفس السياق نجد صاحب التفسير الواضح يوظف المثل لخدمة الآية قائلاً:((بذل نوح غاية جهده، في نصح قومه، واجتهد في أن يتبعوه في الايمان بالله، والبعد عن عبادة الاصنام. مكث على ذلك ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ولكن ما زادهم ذلك الا فراراً وعتواً، واستكباراً حتى ضاقوا به ذرعاً ، وضاق بهم ذرعا وكبر عليهم مقامه، وبلغ السيل الزبى))[3]، وأما في قوله تعالى عن إبن نوح عندما قال:﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[4]، نجد أن أبا السعود يوظف المثل أحسن توظيف في تفسير الآية قائلاً:((ألا زعماً منه ان ذلك كسائر المياه في أزمنة السيول المعتادة، التي ربما يتقى منها الصعود الى الربا، وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى، وجهلاً منه بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرة، وأن لا محيص من ذلك سوى الالتجاء الى ملجأ المؤمنين))[5] ، فجاء المثل هنا في مكانه لأنه يوم قد حق فيه العذاب وجف

---

(١) سورة القمر، الآية(١٠) .

(٢) الكشاف ، ج١ ، ص ٤٣٤.

(٣) التفسير الواضح ، ج٢ ، ص١٢٠.

(٤) سورة هود، الآية(٤٣).

(٥) تفسير أبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار احياء التراث العربي، ج ٤ ص ٢١٠ .

وجف القلم بما هو كائن[١] ، وإذا ما تأملنا من قوله تعالى واصفى شدة ايوب عليه السلام يقول تعالى ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾[٢] ، فإننا نلاحظ أن صاحب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور بعد أن يصف شدة أيوب، وما لاقاه من البلاء الشديد من ضر ومشقة وهم داء ووجع وبلاء يثقل صاحبه، فيتعبه ويكده ويجهده مع عذاب، أي نكد قوي جداً دائم مانع من كل ما يلذ ، ويمكن أن يساغ، ويستطعم أجمله، ونكره تنكير لتعظيم استغنائه على وجازته عن جمل طوال ودعاء عريض[٣] قائلاً:((إعلاماً بأن السيل قد بلغ الزبى))[٤] . فالملاحظ ان قوله(إعلاماً بأن السيل قد بلغ الزبى) بأن شدة أيوب قد بلغت ذروتها، وأنه لا طاقة لما هو فيه إلا بأن يقول رب أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين .

واخيراً أقول أعوذ بالله من ظلم أهل هذا الزمان، وخاصة أولئك الذين هم أعداء أهل الحق، و الذين تسلطوا علينا، سائلين المولى تعالى أن يسلط عليهم جنده؛ لأنهم وصل بهم ظلم العباد الى حد لا يطاق فقد بلغ السيل الزبى .

---

(١) ينظر فتح البيان في مقاصد القرآن ، ج ٦ ، ص ١٨٥.

(٢) سورة ص، الآية (٤١).

(٣) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج ١٦، ص ٣٦٠.

(٤) المصدر نفسه، ج ١٦، ص ٣٦٠ .

المطلب الثالث

ظلم الإنسان نفسه

المثل المستخدم: جنت على نفسها براقش

دلالته: هو أشهر الأمثال الشعبية التي رددها العرب قديماً، وتناقلتها الأجيال دون معرفة ماهي براقش، ويضرب لمن يعمل عملا ويرجع ضرره و شؤمه إليه، أي: ضر به نفسه أو أهله ، وجلب الهلاك له و لأهله[١] .

الآيات التي يتعلق بها المثل :

١- **قوله تعالى:** ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[٢].

٢- **قوله تعالى:** ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [٣].

٣- **قوله تعالى:**﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ [٤].

٤- **قوله تعالى:** ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ [٥].

٥- **قوله تعالى:** ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٦] .

---

(١) ينظر مجمع الأمثال للميداني، ج ٢، ص ١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية(٦٠).

(٣) سورة يونس، الآية (٤٤).

(٤) سورة هود، الآية (١١٣).

(٥) سورة الطلاق، الآية (١).

(٦) سورة البقرة، الآية (١١٨).

تمهيد:

لقد بين القرآن الكريم خطورة الظلم، وآثاره الوخيمة على الظالمين الذين يفسدون في الأرض، و الذين لا يسلم من ظلمهم بشر و لا حجر، وعند تدبرنا لآيات القرآن الكريم نجد أن مفهوم الظلم واسعاً، فهو لم يكتفِ بالحديث عن ظلم الانسان لإنسان، أو عن ظلم الأنسان لربه، بل أضاف الى ذلك ظلم الانسان لنفسه؛ وذلك بعدم تربيتها وتزكيتها وفق منهج الله؛ بسبب غفلته وجهله عن الله تعالى، وظلم الانسان لنفسه لا تقف آثاره السيئة على نفسه، بل هو يترك آثاره السلبية على المجتمع؛ لكون الانسان جزءاً من المجتمع، وما يتهدده ويؤثر فيه، سيترك اثره في سلامة المجتمع وقوّته وفي الحياة، فالحياة تعاني نتاج الذين ظلموا أنفسهم؛ لأنهم إنحرفوا عن المنهج الصحيح الذي بينه الله تعالى على لسان رسله عليهم السلام، كما أن الإنسان حينما يظلم إنساناً آخر، فهو في واقع الأمر قد ظلم نفسه، وبخسها حقها .

دلالة الآيات التي يتعلق بها المثل :

ولبيان ظلم الانسان لنفسه وآثاره الخطيرة عليه وعلى أهله ومجتمعه، فقد جاءت آيات هذا المطلب تبين ذلك، ففي قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1] ، أي: ((إن الله لا يظلم الناس شيئاً بتعذيبهم من غير أن تقوم الحجة عليهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ومن غير ان يكونوا سليمي الحواس و المدارك، فإنه لعدله لا يفعل ذلك، ولكن الناس أنفسهم يظلمون بالكفر والتكذيب وعدم إستعمال حاساتهم و مداركهم فيما خلقت له))[2]، فإذا أخذهم الله بذنوبهم، فذلك عدل منه سبحانه وتعالى، فهو سبحانه إنما أذاقهم طعم ما غرسوا، فإذا كان هذا الغرس الذي غرسوه مما لا تسوغه أفواههم، فتلك جنايتهم على أنفسهم، فما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون، فكانوا هم الظالمين لأنفسهم ، إذ حادوا بها عن طريق الهدى، وعدلوا بها عن شاطئ

---

(١) سورة يونس ، الآية(٤٤).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي، ج٦، ص٢٩.

الأمن والسلام ، فأوردوها تلك الموارد المهلكة[١] ، فهنا نلاحظ أن الآية الكريمة دلت على أن ما يصيب الناس من عذاب ونكد وشقاء في الدنيا و الآخرة هو بسبب جنايتهم على أنفسهم، إذ لم يجاهدوا أنفسهم فيمنعوها عن المعاصي والذنوب، بل اتبعوا أهوائهم وشهواتهم، وعدلوا عن منهج الله تعالى بما تمليه عليهم نفوسهم من سوء و ظلم وعناد، كما هو حال بني إسرائيل عندما أمرهم بدخول القرية خاشعين ذليلين متضرعين شاكرين لنعمة الله التي أنعم بها عليهم، طالبين غفران خطاياهم كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٢]، أي: ساجدين شكرا لله على ما أنعم به عليكم، وأن أخرجكم من الظلمات الى النور، ومن الذل الى العزة، ومن الظلم المرهق الى العدل المنصف، وأن أعطاكم ما تحبون من طيب العيش، وما تشتهون من حلال[٣] ، وقول تعالى:﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾، أي: حط عنا ذنوبنا، وتغمدنا برحمتك والتوبة اليك، وإن الله رتب على خضوعهم، وشكرهم لنعمة الله تعالى، وطلبهم من الله تعالى أن يحط عنهم ذنوبهم[٤] فقال تعالى:﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾، ولأنهم قد تعودوا المعصية وألفوها، غيروا الألفاظ، وبدلوها الى ألفاظ تدل على نقيض معناها، وكذلك دائما شأن العصاة المذنبين وخصوصا بني إسرائيل، ولذلك قال تعالى:﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[٥]، فقد قيل لهم قولوا حطة أي حط عنا يا ربنا ذنوبنا، ولا تعذبنا بما فعلنا وأعف عنا، بدلوا هذه الكلمة الضارعة الخاشعة الى كلمة أخرى قريبة اللفظ ، ولكن فيها معنى مغاير، فقالوا:(حنطة) أي: أنهم بدل أن يتوجهوا الى

---

(١) ينظر التفسير للقرآن الكريم ، ج٦ ، ص٧٢٣ .
(٢) سورة البقرة، الآية (٥٨) .
(٣) ينظر زهرة التفاسير، ج ٢، ص ٢٤٢ .
(٤) ينظر المصدر نفسه، ج١، ص٢٤٣ .
(٥) سورة البقرة، الآية (٥٩) .

الله تعالى بالضراعة توجهوا إليه بطلب المادة، والحنطة هي القمح، يتركون الضراعة التي هي نعمة التقوى الى طلب القوت، وفي ذلك عدول عن إرضاء الله تعالى الى طلب ما يرضي أهواءهم. إنه إستهزاء بأوامر ربهم، وتحريف للقول عن مواضعه كما فعلوا من بعد موسى عليه السلام، إذ حرفوا القول عن مواضعه و ضلوا ضلالاً بعيداً. وإذا تأملنا الآية جيداً فلا بد من أن نقف على قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، فقد ذكر الله تعالى الموصول وأظهره في موضع الإضمار للإشارة إلى أن الدافع لهم على التغير والتبديل في أمر الله تعالى أو نهيه هو ظلمهم وإلحادهم في دين الله تعالى؛ ولذلك عاقبهم الله تعالى، فأنزل العذاب بهم قال تعالى:﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، والرجز هو العذاب، أو هو الرجس، والرجز قاذورات النفوس وفسادها، وقد أصابهم الله تعالى بالأمرين، ففسدت نفوسهم إلا أن يتوبوا، وأنزل الله تعالى عذابه بهم، إذ جعلهم أذلاء مستضعفين في الأرض إلا أن يتسربلوا بسربال التقوى، ويسيروا في طريق العزة، ويهجروا أسباب الذل[1]، وهكذا بينت لنا هذه الآية الكريمة وبال الذين يظلمون أنفسهم بنزول عذاب الله عليهم لمخالفتهم حدود الله تعالى. وهذه من قبائح اليهود، فقد كانت الصبغة الغالبة عليهم نقض المواثيق، والتحلل من العهود والعقود كما بين القرآن الكريم ذلك في عدة مواضع[2]. والإشارة في الآية بفعل المضارع (يفسقون) دلالة على أنهم مستمرين في المكر والخداع ونقضهم لعهد الله وميثاقه على مر الزمان، لأن الفعل (يفسقون) يفيد التجدد والإستمرار، وهذا ما نشاهده، فكما عاقبهم الله تعالى سابقاً بالتيه لمدة أربعين سنة، وسلط عليهم أنواع عذابه من الآفات، فكان عقابهم مادياً ومعنوياً من إضراب الله لهم من الذلة والمسكنة إلى درجة أن يقتل الله فيهم معاني الإنسانية الكريمة، و أن

---

(١) ينظر زهره التفاسير، ج ١، ص ٢٤٦ .

(٢) ينظر التفسير القرآني للقرآن الكريم، ج ١، ص٨٩ .

يميت في نفوسهم كل معاني القوة والرجولة مع تسلط الله عليهم بقوى خارجية تسيمهم الخسفة والهوان ، فكما عاقبهم الله سابقاً نجد الآن وعلى مر الأزمنة، وفي يومنا والى يوم الدين أن عذاب الله مستمر عليهم فهم يقطعون أمماً في الأرض ويتيهون من الأمم والشعوب إلى يوم الدين[١] . وإذا كانت الآية السابقة تكلمت عن الظلم وخطورته ونتائجه السيئة على النفس، وعلى المجتمع، وكيف لاحظنا أن ظلم نفر من بني إسرائيل لأنفسهم أدى الى شقاء أمة كاملة، كذلك نجد أن آيات القرآن الكريم تبين أن الركون فقط إلى الذين ظلموا وتأييدهم وعدم الإنكار عليهم طريق إلى دخول جهنم والعياذ بالله تعالى، قال تعالى:﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾[٢]، أي لا تميلوا إليهم، ولا تتبعوا سبيلهم، ولا تأمنوا جانبهم. وهو نهي عام عن موالاة الظالمين ومناصرتهم وإتباع سبيلهم. ومن الذين ظلموا أولئك الذين يتأولون كتاب الله حسب ما تمليه عليهم اهواؤهم، فَيُضِلون، وَيُضِلونَ غيرهم[٣]. وفي الآية دليل على وجوب هجران أهل الكفر والمعاصي، وأهل البدع والأهواء، فإن صحبتهم كفر أو معصية، وإن الصحبة لا تكون إلا عن مودة قال حكيم: عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه[٤] ، قال الشعراوي– رحمه الله – ((و أنت إذا إستقرأت وضع الظلم في العالم كله، لوجدت أن آفات المجتمعات الإنسانية، إنما تنشأ من الركون إلى الظالم، لكنك حين تبتعد عن الظالم وتقاطعه أنت ومن معك، فلسوف يظن أنك لم تعرض عنه إلا لأنك واثق بركن شديد آخر، فيتزلزل في نفسه، حاسباً حساب القوة التي تركن إليها، وفي هذا

---

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن، ج ١، ص٩٠ .

(٢) سورة هود، الآية(١١٣) .

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن الكريم ، ج٦، ص١٢٠٩ .

(٤) ينظر أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري،ج٢، ص٥٨٤ .

إضعاف لنفوذه وعزلة له وردع لعله يرتدع عن ظلمه))[1] ، وما وصلت المجتمعات العربية إلى ما وصلت إليه إلا لأن أغلب حكامها ركنوا إلى حكام العالم الظالمين، فزينوا لهم باطلهم، مما أدى ذلك الركون الى تسلطهم على دولهم وعلى شعوبهم يسومونهم سوء العذاب .

وظيفة المثل في الآيات السابقة :

بعد أن بينا دلالة الآيات آنفة الذكر وقول المفسرين فيها، من أن ما يصيب الأفراد والمجتمعات من عذاب وشقاء وضيق في العيش، ونكد في الحياة؛ هو بسبب ظلم الناس لأنفسهم، وظلمهم بعضهم لبعض، نلاحظ أن المثل (جنت على نفسها براقش) يأتي به المفسرون معززاً ومكرساً هذا المعنى، ففي قوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2]، نجد الإمام الشوكاني وهو يوضح معنى الآية بقوله:((إن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة، بل لأجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق، والمجادلة بالباطل والإصرار على الكفر، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الأشياء، بل خلقهم، وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك، ورَكَّب فيهم من الحواس ما يصلون به الى ما يريدون، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم، وخلّى بينهم وبين مصالحهم الدينية، فعلى نفسها براقش تجني))[3]، فأنت تلاحظ إن مجيء الشوكاني بعد نهاية شرحة للآية بالمثل (فعلا نفسها براقش تجني) بمكانه تماماً، حيث توضحت الصورة أكثر للقارئ عندما جاء بعبارة قصيرة شاملة للمعنى متداولة عند العرب قديماً وهي المثل فلم يبقى أي لبس عند القارئ في بيان ووضوح معنى الآية جليا واضحاً، وهي أن الله لا يظلم الناس وإنما الناس هم يجلبون الشر لأنفسهم بسبب سوء تصرفهم

---

(١) تفسير الشعراوي، ج ١١، ص ٦٧١٥ .

(٢) سورة يونس، الآية ٤٤ .

(٣) فتح القدير للشوكاني، ج٢، ص٥١٠ .

بعنادهم ومكابرتهم وغطرستهم، وكذلك نجد المثل يؤدي دوره تماماً ووظيفته في الآية الأولى هي قوله تعالى:﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾[1]، فالشوكاني يستشهد بآيات بالمثل في قوله ((وبالجملة فمن أُبتلي بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقوالهُ وأفعاله وما يأتي وما يذر بميزان الشرع، فإن زاغ عن ذلك (فعلى نفسها براقش تجني) ، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى له والأليق بهِ))[2]، فقد شبه المفسر الشوكاني–رحمه الله– حال الذين ركنوا إلى الذين ظلموا فلم يحافظوا على ميزان الشرع، بل زاغوا مجاملة للسلطان الظالم، لأجل أغراضهم الدنيوية، فوقعوا في المهالك والردى بسبب انفسهم لأنهم حادوا عن الطريق فقد شبههم بحال تلك الكلبة براقش عندما جنت على نفسها وعلى قومها بنباحها، مما أدى ذلك إلى علم العدو بمكانهم، فذبحوها وذبحوا قومها، فهو تشبيه مطابق لحال من يجني على نفسه ألويلات بسبب مخالفة أمر الله في كل شأن من شؤون الفرد أو المجتمع .

وإذا كانت خطورة مخالطة الذين ظلموا لهذه الدرجة، فندعوا الله تعالى أن يجعلنا من عباده الصالحين، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، الذين لا يخافون في الله لومة لائم، وأن يقوينا على ذلك، وييسر لنا ويعيننا عليه .

---

(١) سورة هود، الآية (١١٣) .

(٢) فتح القدير للشوكاني، ج ٢، ص ٦٠٢، و فتح البيان في مقاصد القرآن، ج٦، ص٢٦٥ ، وتفسير المنار، ج ١٢ ، ص ١٥٠ .

المطلب الرابع

القصد والإعتدال

المثل المستخدم: ترك الحبل على الغارب

دلالته: يضرب المثل عند منح الحرية الكاملة، من دون قيد أو شرط، والغارب هو أعلى مقدم السنام في البعير، وقال الأصمعي: وأصل المثل: أن الناقة إذا رعت وعليها خطامها، ألقي على غاربها، وتركت ليس عليها خطام، لأنها إذا رأت الخطام لم يحثها المرعى، وكذلك إذا أهمل البعير طرح حبله على سنامه وترك يذهب حيث شاء، وغارب كل شيء أعلاه : غارب الموج ، ومقدم السنام[١].

الآيات التي يتعلق بها المثل

١- **قوله تعالى :** ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [٢].

٢- **قوله تعالى :** ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [٣] .

---

(١) ينظر مجمع الامثال للميداني ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

(٢) سورة المؤمنون، الآيات (٣ – ٧).

(٣) سورة لقمان، الآية(٦).

دلالة الآيات :

ابتدأت سورة المؤمنين في الحديث عن صفات المؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح في الدنيا والاخرة، فذكرت عدة صفات، ومنها وصف المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾[١] ، ففي الآيات وصف لطهارة الروح والبيت والجماعة ووقاية النفس والأسرة والمجتمع بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير حلال ، وحفظ القلوب من التطلع الى غير حلال، وحفظ الجماعة من إنطلاق الشهوات فيها بغير حساب ، ومن فساد البيوت فيها والأنساب . والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة معرضة للخلل والفساد؛ لأنه لا أمن فيها للبيت، ولا حرص فيها للأسرة[٢].

والآية هنا تحدد المواضع النظيفة التي يحل للرجل أن يودعها بذور الحياة : ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ ((أي : والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام ، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا او لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السراري ، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج)) [٣]، فالمؤمنون المفلحون لا يتجاوزون حدود الله ؛ لذلك ختمت الآية بقوله تعالى :﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾أي التمس وطلب سوى الأزواج .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيات (٤ – ٧) .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٤٥٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ، ج٥ ، ص ٤٦٢ .

(فأولئك هم العادون) أي المعتدون الظالمون المتجاوزون من الحلال الى الحرام[١]وهكذا ((فالجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة معرضة للخلل والفساد؛ لأنه لا أمن فيها للبيت ، ولا حرمة فيها للأسرة ، والبيت هو الوحدة الأولى في بناء الجماعة))[٢]، فالآية الكريمة دلت على أن المؤمن الصادق هو الذي يحافظ على فرجه ضمن الضوابط التي حددها الله تعالى له، فلا يتعداها فيدنس شرفه فيما لا يحله الله له من زنا أو لواطة او إستمناء باليد دون رادع يردعه منطلقاً وراء شهواته ورغباته منفلتاً متجاوزاً حدود الله تعالى. وإذا ما رجعنا الى الآية الأخرى موضع الشاهد في هذا المطلب وهي قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[٣].

فالآية هنا أيضاً تبين حال اولئك الذين يتجاوزن حدود الله التي رسمها الله تعالى موافقة للفطرة البشرية، فضلوا عن سبيل الله تعالى لأنهم لم يطلبوا الهدى ، ولم يلتمسوا الأسباب التي تفتح لهم الطريق اليه ، فالناس فريقان : فريق طلب الهدى فهداه الله ، وكان من الفائزين المفلحين ، وفريق أقام وجهه على الضلال وسعى حثيثاً اليه ، فبدلاً أن يغشى مجلس الإيمان ويستمع الى آيات الله ، ويتلقى منها النور الذي يضيء جوانب نفسه المظلمة، بدلاً من هذا شغل نفسه بتلك الأحاديث اللاهية التافهة ، يرضي بها أهوائه ، ويشبع بها جوع نزواته ، فضل بذلك عن سبيل الله ، واتخذ آيات الله التي يسمعها هزوا ، فهذا الضال ومن على شاكلته ، لا جزاء له إلا النار[٤]، وهكذا الانسان الذي يميل مع نفسه ويترك لها ما تشاء من رغبات وشهوات، فلا شك أنه يورد نفسه

---

(١) ينظر تفسير البغوي ، ج ٥ ، ص٤١٠ ، وتفسير ابن كثير ، ج ٥ . ص ٤٦٣ .
(٢) في ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٤٥٥.
(٣) سورة لقمان ، الآية(٦) .
(٤) ينظر التفسير القرآني للقرآن ، ج ١١ ، ص ٥٥٧.

الهلاك ، فالآية دلالتها واضحة وهي أن الانسان إذا أعطى لنفسه العنان دون لجام لها فإنها تستبدل الهدى بالضلال، والايمان بالكفر، والحق بالباطل ، وتجدر الاشارة عند ملاحظة تفسير آية هذا المطلب تبين لي أن مكمن فلاح العبد هي الدنيا والآخرة يتوقف على كبح جماح النفس الأمارة بالسوء، وهذا لا يأتي إلا من صاحب الايمان الثابت على مبادئ الاسلام الحنيفية السمحاء، ثبتنا الله جميعاً على الطريق المستقيم، وجنبنا الزلل والخطايا انه سميع مجيب.

وظيفة المثل في الآيات السابقة :

لقد لاحظت عند تتبعي لهذا المثل (ترك الحبل على الغارب) في تفسير آيات القرآن الكريم أن المفسرين قد إستشهدوا بهذا المثل في آيات عديدة، ومنها آيات هذا المطلب، ففي تفسيرهم لقوله تعالى﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾ [١]، نجد صاحب التفسير القرآني للقرآن يعزز معنى الآية، ويضمنه بهذا المثل بحيث يبرز معنى الآية بوضوح مما يجعل ذهن القارئ مستوعباً للمعنى تماماً، فنلاحظ وهو يفسر الآية يقول : ((وانظر إنه لو ترك للإنسان الحبل على الغارب ، لكان له أن يتصل بأي امرأة يريدها ويشتهيها، وهذا من شانه يجعل جميع النساء مباحات له يتصل بهن بوسيلة أو بأخرى))[٢]، فأننا نلاحظ أن إستشهاد المفسر جاء بمكانه وعزز معنى الآية تماماً ومناغما مع قوله تعالى ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾، لأن ترك الانسان الحبل على الغارب يصبح قد تحول من دائرة الإنسانية المكرمة الى الحيوانية البهيمية، لأن الإسلام يريد للمسلم أن لا يتجاوز

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات (٤ – ٧).

(٢) التفسير القرآني للقرآن ، ج ٩ ، ص ١١١٤.

حدود الإتصال بالمرأة، وهذا كله يعني القصد في هذا الأمر والإعتدال فيه وألا يكون الانسان على سواء مع الحيوان.

و أيضاً نجد الامام الشعراوي– رحمه الله – يستشهد بالمثل في تفسيره للآيات القرآنية، فيقول وهو يتحدث عن حماية أخلاق الأسرة : ((إن في ذلك حماية لأخلاق الاسرة من الإنهيار أو التحلل . فلو فطن كل واحد أن يسأل أهله، ومن يدخلون في كفالته (من أين لك هذا؟) لعرف كل تفاصيل حركتهم ، لكن لو ترك الحبل على الغارب لفسد الامر))[1] ، فهنا يتحدث الشعراوي عن الإنفلات الخلقي الأسري، موضحاً المعنى تماماً عند الإستشهاد بالمثل، وكذا الأمر بالنسبة للآية الثانية وهي قول تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[2]، نلاحظ أيضاً صاحب التفسير القرآني للقرآن يستشهد بهذا المثل في إيضاح معنى الآية للقارئ فيقول بعد تفسيره للآية ((فقد يطلب الانسان الهدى ، ثم لا يهتدي اليه ، لسبب أو لأكثر ، ومثل هذا الانسان لابد أن يجد الهدى في يوم من الأيام ، مادام جاداً في الطلب والبحث ، أما معنى ترك لنفسه الحبل على الغارب ، وأخذ بكل ما يلقاه ، فإنه لا يجد الا ما تميل اليه نفسه من اهواء وضلالات))[3]، فقد وصف الذي أبدل الهدى بالضلال، وآيات الله تعالى بالغناء و الأحاديث التافهة؛ لأنه ترك نفسه على هواها دون رادع لها، فقد وصف ذلك بمن ترك الحبل على الغارب، فكان المثال في هذا الموطن أدى وظيفته تماماً، من حيث أن الإنسان إذا أعطى أمور نفسه تسير بكل حرية غير رادع لنفسه، فإن ذلك يورد نفسه هلاكها؛ لأنه لم يقيد نفسه بلجام التقوى والوقوف عند حدود الله تعالى ، وما أروع ما يستشهد به صاحب تفسير التيسير في أحاديث التفسير بهذا

---

(١) تفسير الشعراوي ، ج ٣ ، ص ١٤٤١ .

(٢) سورة لقمان، الآية (٦).

(٣) التفسير القرآني للقرآن ، ج ١١ ، ص٥٥٨ .

المثل عندما يتحدث عن الذرية عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [١] قائلاً: ((فيه توجيه لعباده المؤمنين حتى يملؤوا قلوبهم بمثل هذا الامل والرجاء، وهو في نفس الوقت تنويه (بالذرية الطيبة) التي هي من نعم الله الكبرى الجديرة بالابتهال والدعاء ، ومثل الرجل الذي لا ذرية له مثل الشجرة التي لا ثمرة لها ، غير أن الذرية المرغوبة والمطلوبة هي الذرية الطيبة كما في دعاء زكريا ، لا الذرية الخبيثة، وطيب الذرية : مرجعه في أغلب الأحوال الى طيب منبتها ، أي الى طيب الأسرة وحسن تربيتها ، والى قدرتها على تحمل مسؤوليتها، من الوجهتين الروحية والمادية ، الدينية والدنيوية ، وإلا كانت الذرية نقمة لا نعمة ، نقمة على نفسها أولاً ، ونقمة على أسرتها ثانياً، ونقمة على وطنها كله في نهاية الأمر، وعلى مثل هذا النوع من الذرية التي لا ينبغي أن يترك لها الحبل على الغارب ينطبق قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[٢] وذلك حتى لا يستشري فيها الفساد ، ويضيع منها الرشاد ، فينطبق حينئذ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾[٣]))[٤].

فهنا نلاحظ أن صاحب تفسير التيسير قد وظف المثل (ترك الحبل على الغارب) تماماً وفق المعنى المراد، فهو بعد أن بين إنفلات الذرية، وعدم إنضباطها بضوابط الاسلام، وانحرافها تماماً بدون قيد بحجة الحرية للأولاد، إستشهد بالمثل لتتوضح الصورة تماماً، وليبرز المعنى كاملاً في ذهن القارئ، وهكذا في آيات أخرى وجدت المفسرين يستشهدون بهذا المثل ويوظفونه من إبراز معاني الآيات تماماً .

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٣٨).

(٢) سورة التحريم، الآية (٦).

(٣) سورة التغابن، الآية (١٤).

(٤) التيسير في أحاديث التفسير ، ج ١ ، ص ٢٢٢.

المطلب الخامس

الجزاء بالمثل

المثل المستخدم: (كما تدين تدان)[١].

دلالته : أي كما تُجازي تُجازَى ، يعني كما تعمل تجازى ، إن حسَنَاً فحسنٌ وإن سيئاً فسيئ ، يعني إن عملت عملاً حسناً فجزاؤك جزاءً حسن ، وإن عملت عملاً سيئاً فجزاؤك جزاء سيء .

وقوله (تدين) أراد تصنع، سمى الإبتداء جزاء للمطابقة والموافقة، وعلى هذا قوله تعالى:﴿ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾[٢]، ويجوز أن يجري كلاهما على الجزاء، أي كما تجازي أنت الناس على صنيعهم كذلك تُجازى على صنيعك ، والكاف في (كما) في محل نصب نعتاً للمصدر ، أي تدان ديناً مثلَ دَيْنِك[٣].

الآيات التي يتعلق بها المثل:-

١) قوله تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[٤].

٢) قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣)﴾ [٥].

٣) قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧)﴾[٦].

---

(١) هو قطعة من حديث لفظه ((البر لا يبلى ، والإثم لا ينسى، والديان لا يموت، إعمل ما شئت كما تدين تدان))، رواه عبدالرزاق في جامعه ١٧٨/١١ رقم (٢٠٢٦٢) ، ومن طريقه البيهقي في الأسماء والصفات، ١٩٧/١ رقم (١٣٢)، وفي الزهد الكبير ٥٢٣/٢ رقم (٧١٨) ، وقال مرسل والله أعلم .

(٢) سورة البقرة، الآية (١٩٤).

(٣) ينظر مجمع الأمثال للميداني، ج٢، ص١٥٥ .

(٤) سورة الفاتحة، الآية (٣).

(٥) سورة الصافات، الآية (٥٢-٥٣).

(٦) سورة الواقعة، الآيتان (٨٦-٨٧).

٤) قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾[١].

٥) قوله تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾[٢].

٦) قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[٣].

٧) قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾[٤].

٨) قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٥].

دلالة الآيات :

أكدت آيات هذا المطلب على حقيقة يوم الدين، وهو يوم الجزاء، وبينت أن الله تعالى يجازي الناس على أعمالهم، إن كانت خيراً فخير، وإن كانت شراً فشر ، وإن من يعمل صالحاً يجازى بمثله، ومن يعمل سيئاً يجازى بنفس العمل، ثم بينت كذلك أن الجزاء من جنس العمل، ليس في الآخرة فقط، بل حتى في الدنيا، فقد جاء العديد من الشواهد من الكتاب والسنة للدلالة على صدق هذه الحقيقة، وهي سنة كونية جعلها الله تعالى عِبرة وعِضة للناس، قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾[٦] ، وقال تعالى:﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)﴾ [٧].

وقد لاحظت أن آيات هذا المطلب جاءت لتؤكد هذه الحقيقة، فمثلاً في قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٨] ، فقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ ،((أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله، وقوله ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي إنما يجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير و إن شراً

---

(١) سورة الإنفطار ، الآية (١٧).
(٢) سورة التين، الآية (٧).
(٣) سورة الإسراء ، الآية (٣٥).
(٤) سورة الحج، الآية (٦٠).
(٥) سورة النور ، الآية (٢٤).
(٦) سورة الرحمن ، الآية (٦٠).
(٧) سورة النجم ، الآيات (٣٦ – ٤١).
(٨) سورة الأعراف ، الآية (١٤٧).

فشر وكما تدين تدان))[1]، وفي الآية إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل ، فمن آمن وعمل الصالحات فله الجنة، ومن كفر وعمل السيئات فله النار[2].

فقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي غير محاسبين ومجزيين ترجعونها إن كنتم صادقين، أي تردون نفس الميت الى جسده بعد ما بلغت الحلقوم، والمعنى: إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب، ولا اله يجازي فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم، و إذا لم يمكنكم ذلك فأعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنو به سبحانه وتعالى والذي من كمال عدله ان يجازي العباد على اعمالهم في الآخرة إن خيراً فخير و إن شراً فشر[3].

و هكذا نلاحظ سائر آيات هذا المطلب تتحدث عن يوم الجزاء والحساب، وأن الله تعالى محاسب الناس على أعمالهم التي عملوها في الدنيا ومجازيهم عليها في الاخرة في ذلك اليوم العصيب الذي تحدث الله عنه في مشهد آخر، وهو يصف حال الكافر المكذب بيوم الجزاء كقوله تعالى:﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾[4]، والدين هنا بمعنى الجزاء والمقارضة كما يقولون كما تدين تدان[5] في ذلك ذلك اليوم الذي يوفى فيه العباد جزاءهم على ما اقترفوه في الدنيا من أعمال كما في قوله تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾[6] ، فـ (يوم) بدل أو عطف بيان من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [7]، والآية السابقة كانت مشتملة على الإثبات ليوم القيامة، وأنه كان من جوارحهم التي تشهد عليهم، وهي شهادة صادقة. وهذه

---

(١) تفسير ابن كثير، ج ٣ ، ص٤٢٧.
(٢) ينظر التفسير الوسيط للزحيلي ، ج ١ ، ص ٧٢٣.
(٣) ينظر تفسير الخازن لباب التأويل في معاني الترتيل ، ج٤ ، ص ٢٤٣ .
(٤) سورة الصافات ، الآية (٢٠).
(٥) ينظر تفسير ابن عطية ، ج ٤ ، ص ٤٦٨.
(٦) سورة النور ، الآية (٢٥).
(٧) سورة النور ، الآية (٢٤).

الآية تبين الحكم، وهو العقاب الشديد، والدين هنا هو الجزاء الصارم الشديد، فـ (الديـن) يجيء بمعنى الجزاء والحساب، يوفيهم جزاءهم الحق الذي إستحقوه بأقوالهم الآثمة، وعندئذ في هذا يعلمون الله، وصدق وعيده، فيعلمون أنه سبحانه وحده الحق المبين، ويعلمون أن ما أشركوا به كان باطلاً، ولا حق إلا الله تعالى أحسن الخالقين[١] . فالآيات آنفة الذكر وكذلك آيات هذا المطلب تؤكد على إثبات يوم الجزاء ويوم الحساب، وأنه تعالى سيحاسب الناس ويجازيهم على أعمالهم في محكمته الكبرى، محكمة العدل الالهي، وأن الجزاء من جنس العمل.

وظيفة المثل : كما تدين تدان

لقد لاحظت عند تتبعي لآيات هذا المطلب وغيرها أن أغلب المفسرين إستشهدوا بالمثل (كما تدين تدان) في تفسيرهم للآيات ، فقد جاء المثل معززاً نفس المعاني التي دلت عليها الآيات، ولنأخذ على سبيل الحصر عدة آيات منها قوله تعالى :﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، فالدين في هذا الموضع تأويل الحساب والمجازاة بالأعمال ، كما قال الشاعر

واعلم وأيقنْ أن ملكك زائلٌ **** واعلم بأنك ما تدين تدانُ

يعني ما تجزي تجازى[٢] .

فهنا نلاحظ أن الإمام الطبري قد إستشهد بالمثل(كما تدين تدان) عندما إستشهد بقول الشاعر ليؤكد نفس معنى الآية (يوم الدين) يوم المجازاة والحساب، والذي يجازي فيه الله تعالى العباد على أعمالهم، وأنه ما تجزي تجازى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾[٣]، يعني بالجزاء، بالجزاء، وفي آية أخرى نجد الإمام الطبري إستشهد أيضا بنفس المثل في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[٤]، يقول : ((أئنا لمجازون بالعمل ، كما تدين تدان))[٥]، فقد أعطى المثل هنا توضيحاً توضيحاً تاماً لمعنى الآية وهو أن العبد كما يدين من أعمال في الدنيا فسيجازى عليها في الآخرة،

---

(١) ينظر زهرة التفاسير ، ج ١٠ ، ص٥١٢٧.
(٢) سورة الفاتحة ، الآية (٤) .
(٣) سورة الإنفطار، الآية (٩).
(٤) سورة الصافات ، الآية (٥٣).
(٥) تفسير الطبري ، ج ١٩ ، ص٥٤٥.

ولفت إنتباهي هنا أكثر للمثل (كما تدين تدان) الإمام الزجاج عندما إستشهد به في تفسيره لقوله تعالى (يوم الدين) فيقول : ((الدين في اللغة الجزاء ، يقال : كما تدين تدان ، المعنى كما تعمل تعطى))[1]، فإننا نلاحظ أن المثل قد توسع فيه في المعنى، فقد فسر معنى المثل بقوله كما تدين تعمل تعطى، فإن عملت خيراً تعطى خيراً، وإن عملت شراً تعطى شرا. وإذا ما انتقلنا الى مفسر آخر وهو صاحب تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، فإننا نجده ايضاً يستشهد بالمثل (كما تدين تدان) في آيات عديدة، فانظر كيف يوظف المثل توظيفاً رائعاً وهو يفسر قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [2] فيقول بعد شرحه للآية : ((وأعلم أيضاً أن الحق تعالى يجازي عبده جزاءً موافقاً لوصفه، فمن كان وصفه التعظيم لكل شيء عظمه الله، ومن كان وصفه التصغير صغره الله، ومن كان وصفه الإحسان أحسن الله إليه، ومن كان وصفه الإساءة أساء الله إليه، ومن كان وصفه الفرق فرقه الله، ومن كان وصفه الجمع جمعه الله وهكذا، كما تدين تدان، كما تقابل الأشياء تقابلك))[3]، فقد وسع مساحة المعنى لينهي الآية باستخدامه للمثل وتوظيفه لمعنى أشمل وأعم. وبعد ما تقدم تبين لنا أن للأمثال دوراً مميزاً في توسع مساحة معاني الآيات. ولأهمية هذا المثل ودوره في معنى الآية، أنه سئل الحسن بن الفضل عن أمثلة العرب، هل تجد معناه في القرآن؟ فأجاب: نعم، ومما سئل قالوا له ((هل تجد في كتاب الله كما تدين تدان؟ فقال: نعم في قوله تعالى ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[4]))[5]. وكما أود الإشارة إليه أني لاحظت أن هذا المثل (كما تدين تدان) هو من أكثر الأمثال التي إستشهد بها أكثر المفسرين في تفسيرهم للآيات التي تعطي نفس المعنى، وذلك لكثرة الآيات التي تعطي نفس المعنى، ولضيق المقام وكثرة الآيات التي إستشهد بها المفسرون بهذا المثل؛ فإني لا أتوسع أكثر، وإنما أكتفي بهذا القدر، ولأنه صار معلوماً أن المثل قد وظف توظيفاً صحيحاً في إبراز معاني الآيات، وتوسيع دائرة معانيها، سائلا المولى تعالى أن يهدينا لعمل

---

(١) معاني القرآن و إعرابه ، ج١ ، ص٤٧.

(٢) سورة الأنعام ، الآية (١٣٩).

(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، ج٢، ص١٧٧.

(٤) سورة النساء، الآية(١٢٣).

(٥) الموسوعة القرآنية، ج٢ ، ص٢٩٧.

الصـالحات، حتـى يجازينـا عليهـا خيـراً فـي أن ننـال رضـاه، ويـدخلنا فسـيح جناتـه مـع النبيـين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً اللهم آمين .

المطلب السادس

الشهادة

المثل المستخدم: (ليس الخبر كالعيان)

دلالته :- في الأصل أن هذا حديث أول من قاله رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ، فعن إبن عباس، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : ((ليس الخبر كالمعاينة ، إنَّ الله عز وجل أخبر موسى بما صنع قومه في العجل ، فلم يُلق الألواح ، فلمّا عاينَ ما صنعوا ، ألقى الألواح فانكسرت)) [١]. والمعاينة: أي المشاهدة. أي أنه ليس حال الإنسان عند معاينة الشيء كحاله عند الخبر عنه، فالله تعالى جعل لعباده آذاناً واعية، وأبصاراً ناظرة، ولم يجعل الخبر في القوة و التأثير كالنظر بالعيان، بل المشاهدة أقوى في تحصيل العلم القطعي [٢] .

الآيات التي يتعلق بها المثل :

١- **قوله تعالى :** ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٣].

٢- **قوله تعالى :** ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾ [٤].

٣- **قوله تعالى :** ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)﴾ [٥].

---

(١) حديث صحيح أخرجه الإمام احمد في مسنده ٢٧١/١ رقم ٢٤٤٧ والحاكم ٣٥١/٢ رقم ٣٢٥٠ وابن حيان ٦٢١٣ .

(٢) ينظر مجمع الامثال للميداني، ج٢، ص١٨٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية (٢٦٠).

(٤) سورة المائدة، الآيات(١١٢-١١٥) .

(٥) سورة طه، الآيتان (٩٢-٩٣) .

دلالة الآيات :

جاءت آيات هذا المطلب لتبين لنا أن المشاهدة بالعين المجردة لا كالسماع؛ وذلك لأن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، وأن الخبر ليس كالمعاينة، والذي تسمعه ليس كالمشاهدة؛ لأن المشاهدة معها دليلها، فهي عين اليقين؛ لأن المشاهد يصل الى حقيقة ما رأى دون شك أو إرتياب على عكس ما يسمع، فإنه قد يحصل معه شك أو إرتياب، وعدم إطمئنان فيما يسمع لعدم وصوله الى الحقيقة وهي المشاهدة، وهذا ما بينته آيات هذا المطلب ففي قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١).

قال بعظهم : ((كان إبراهيم –عليه السلام– موقناً بأن الله يحيي الموتى، ولكن أحب أن يعاين ذلك، لأن الخبر لا يكون عند ابن آدم كالعيان على ما قيل : (ليس الخبر كالمعاينة)، وأن الله أمره أن يأخذ أربعةً من الطير فيذبحهن وينتفهن ثم يقطعهن أعضاءً أعضاءً ثم يخلط بينهن جميعاً ثم يجزأهن أربعة أجزاء ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم تنحى عنهن فجعل يعدو كل عضو إلى صاحبه حتى استوين كما كن قبل أن يذبحهن ثم أتينه سعيا))(٢) . فكان سؤال سيدنا إبراهيم عليه السلام في أن يريه الله كيف يحيي الموتى من باب أن علم اليقين ليس كعين اليقين فأراد أن يضم الشهود والعيان إلى الوحي والبرهان(٣). وهنا نلاحظ أن الآية دلت دلالة واضحة أن المعاينة تزيد الإطمئنان، وتؤكد حقيقة الشيء. وأيضاً مما يؤكد أن الخبر ليس كالمعاينة قوله تعالى﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) ﴾ (٤). ففي قوله تعالى: ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾، قال صاحب تفسير البحر المديد: ((قالوا نريد أن نأكل منها أكلاً نتشرف به بين الناس، وليس مرادهم شهوة البطن، وتطمئن قلوبنا بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال، أي: نعاين الآية ضرورة ومشاهدة، فلا تعرض لنا الشكوك التي في الاستدلال، ونعلم أن قد صدقتنا علماً ضرورياً لا يختلجه وهم ولا شك، ونكون عليها من الشاهدين، أي: نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس، أو من

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٦٠).

(٢) تفسير الماتريدي، ج٢،ص٢٤٩.

(٣) ينظر البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .

(٤) سورة المائدة ، الآيتان(١١٢–١١٣) .

الشاهدين بالعين دون السامعين للخبر، وليس الخبر كالعيان)) [١]. فالآية قد بينت أن الحقيقة القاطعة للشك هو رؤية العين المجردة للشيء المراد، وهذا ما نلاحظه هنا في قوله تعالى:﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)﴾[٢] فقد ((ضاق قلب موسى – عليه السلام – لما شاهد من قومه بالمعاينة عبادة العجل، ولقد كان يسمع من الله أن السامري أضلّهم حين قال: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ ﴾[٣]، ولكن قديماً قيل ليس الخبر كالعيان، فلما عاين ذلك ضاق قلبه، فكان يقول لأخيه ذلك فظهر منه ما ظهر))[٤]. فموسى عليه السلام رغم أنه سمع من الله تعالى إضلال السامري لقومه، لكنه إزداد تأكداً عندما رأى بعينه عبادتهم للعجل مما زاده ذلك غضباً شديداً .

وظيفة المثل: (ليس الخبر كالعيان)

لقد بينا أن النفس البشرية عندما تعاين الشيء يكون الوضع والتأثير عليها أشد، وإن كان المخبر أوثق وأصدق، وهذا ما لاحظته في بيان الآيات آنفة الذكر، ومما يؤكد حقيقة ذلك أن أغلب المفسرين لمثل هذه الآيات قد إستشهدوا بالمثل (ليس الخبر كالمعاينة)، وللتأكيد أن رؤية العين تقطع كل شك فلنأخذ على سبيل الحصر قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٥]، نجد أن الماتريدي يستشهد بهذا المثل في إعطاء معنى الآية أكثر وضوحاً فيقول: ((كان إبراهيم –عليه السلام– موقناً بأن الله يحيي الموتى، ولكن أحب أن يعاين ذلك؛ لأن الخبر لا يكون عند ابن آدم كالعيان ، على ما قيل ليس الخبر كالمعاينة))[٦] . فالمثل هنا قد أدى وظيفته بأن زاد معنى الآية وضوحاً و تأكيداً، بمعنى أن الرؤية العينية للشيء

---

(١) تفسير البحر المديد في تفسير القرآن ، ج٢ ، ص ٩٠ .
(٢) سورة طه ، الآيتان (٩٢ – ٩٣) .
(٣) سورة طه ،الآية (٨٥).
(٤) تفسير لطائف الاشارات ، ج٢،ص٤٧٣.
(٥) سورة البقرة ، آية (٢٦٠) .
(٦) تفسير الماتريدي ،تأويلات اهل السنة ، ج٢ ، ص٢٤٩ .

هي عين اليقين، وليس علم اليقين الذي يكون نتيجة الإستدلال و النظر، فجاء الإستشهاد بالمثل بمكانه مؤدياً للمعنى المراد بأكمل صورة، وكذا الحال في قوله تعالى :﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)﴾[١]، قال القشيري: ((ضاق قلب موسى عليه السلام لما شاهد من قومه بالمعاينة عبادة العجل، ولقد كان سمع من الله أن السامري أضلهم حين قال: (فإنا قد فتنّا قومك) ، ولكن قديماً قيل ليس الخبر كالعيان، فلمّا عاين ذلك ضاق قلبه، فكان يقول لأخيه ذلك فظهر منه ما ظهر)) [٢]. فالمفسر رحمة الله بعد توضيحه لمعنى الآية إستشهد بالمثل (ليس الخبر كالعيان)؛ ليعطي صورة واضحة أكمل معنى، وليتركز في ذهن القارئ المعنى الحقيقي أكثر كما لاحظت .

ومما تجدر الإشارة إليه أن أغلب المفسرين قد إستشهدوا بهذا المثل (ليس الخبر كالعيان) في كثير من الآيات التي تعلق معنى المثل بها، إلا انه لم أتوسع بضرب أمثلة أخرى كثيرة قد إستشهد بها المفسرون في تفسيرهم لآيات القرآن الكريم، وإنما فتحت قفلاً للولوج في مثل هذه الدراسات المهمة لأفتح المجال في التوسع في مثل هذه المواضيع لطلبة الدراسات العليا والباحثين والله ولي التوفيق.

---

(١) سورة طه، الآيتان (٩٢ – ٩٣).

(٢) لطائف الاشارات ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

الخلاصة

يمكن تلخيص البحث ونتائجه على النحو الآتي :

١- إن للأمثال في لغة العرب مكانة رفيعة ؛ لِما لها من دور بارز في الإقناع، وسرعة الفهم، وإزالة اللبس والإشكال، كما لها أهمية في حفظ تراث الأمة، وقد رأيتُ أهمية الأمثال من خلال إبرازها الكلام، والمعاني الدلالية المرادة، وإنها تكسو الكلام الطلاوة والجمال، وترفع من قدر الكلام، وتحرك النفس لحفظها، وتدعو الخاطر لتداولها ، وتعلق في النفس سهولة حفظها.

٢- إن أكثر التفاسير قد حفلت في الإستشهاد بالأمثال العربية؛ لما لها عند المفسرين من أهمية كبيرة من مبدأ أن كتاب الله تعالى إنما نزل بلغة العرب وكلامهم، وما أَلِفوه من إستعمالهم اللغوي .

٣- لاحظت من خلال البحث أن الكثير من المفسرين قد أستشهد بعدد لابأس به من الأمثال العربية المشتهرة منذ قديم الزمان في تعزيز وتوجيه الآيات معنى واضحاً.

٤- إن جميع الأمثلة التي إستشهد بها المفسرون في تفسير النصوص القرآني جاءت موافقةً تماماً لمعاني الآيات وتوجيهها، وأن الأمثال جاءت كتعليل لإثبات معاني ومفهوم الآيات .

٥- سلطت الضوء على بعض الأمثلة العربية ودورها في تعزيز معاني الآيات ففي المثل (خير الأمور أوساطها) أن أغلب المفسرين قد إستشهدوا به في توجيه معاني الآيات الكريمة التي للمثل صلة فيها، لأني قد إعتدت أن أجمع الآيات ذات الموضوع الواحد التي يتصل بها موضوع المثل، ولم أتناول كل الآيات؛ لأن البحث سوف يطول، فالمثل أعلاه كان عاملاً مهماً في تأدية وظيفته تماماً في تعزيز معاني الآيات التي كانت تدل على توسط الأمور في كل شيء ، وهكذا لاحظت أن المثل قد صدر منهم إعتماداً على القرائن الموجودة.

٦- والمثل (بلغ السيل الزبى) قد إستشهد المفسرون به كثيراً في توجيه الآيات ذات الصلة، فمثلاً في قوله تعالى (وفار التنور) كيف لفت إنتباهنا المفسرون عندما

إستشهدوا بالمثل لتعزيز معاني الآيات تماماً عند شرحهم للآية بقولهم (وفار التنور مثلُ لبلوغ الشيء إلى أقصى ما يتحملهُ مثلهُ ، كما يقال بلغ السيل الزبى).

وهكذا في كل الأمثال التي إستشهد بها المفسرون في تفسير آيات القرآن الكريم، فإنهم يوظفونها توظيفاً صحيحاً، بحيث يكون المعنى شاملاً للآية واضحاً للقارئ .

ومن خلال بحثي هذا أرى و أشجع طلبة الماجستير و الدكتوراه، وألفت إنتباههم إلى أهمية دراسة دور الأمثال الكثيرة في توجيه معاني آيات الذكر الحكيم؛ وذلك لفتح مجال أوسع في مثل هذه المواضيع لطلبة الدراسات العليا و الله ولي التوفيق .

الباحث

المصادر

١- القرآن الكريم.

٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) ، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان،الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٣-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ

٤- الجامع لأحكام القرآن المؤلف أ. أبو عبدالله محمد بن أحمد بن بكر بن فهد الأنصاري الخزرجي نمر الدين القرطبي ، توفي ٦٧١هـ ، تدقيق :أحمد البردوني و إبراهيم اطفيش . الناشر دار الكتب المصري ، القاهرة .

٥- تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل، المؤلف: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ) تصحيح: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

٦- فتح القدير المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ

٧- لطائف الاشارات ، المؤلف : عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك ـ (المتوفي : ٤٦٥هـ) المحقق : ابراهيم البسيوني ، الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، الطبعة الثالثة .

٨-زاد المسير في علم التفسير . ج١ – ص١١٩ . لجمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي القريشي التيمي البكري الحنبلي المشتهر بأبن الجوزي ، ولد ببغداد سنة (٥٠٨ هـ) توفي سنة (٥٩٧هـ) – ١٢٠١م .
٩- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
١٠- تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – تأليف أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الاندلسي ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، الطبعة الاولى (١٤١٣هـ – ١٩٩٣م).
١١- فتح البيان في مقاصد القرآن ، ج – ٦ ، ص ١٨٥ ، ابو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن –لطف الله الحسيني البخاري ـــ ، توفي سنة ١٣٠٧هـ ، المكتبة المصرية ، صيدا ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.
١٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج – ١٦ ، ص – ٣٦٠، ابو ليلى الدين ابن الحسن ابراهيم بن عمر اليقاعي ، تحقيق : عبدالرزاق غالب المحمدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.
١٣- التيسير في احاديث التفسير، تأليف محمد المكي الناصري ، (المتوفي : ١٤١٤هـ)، الناشر : دار الغرب الاسلامي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الاولى ،١٤٠٥ هـ –١٩٨٥م.
١٤- تفسير القرآن العظيم ، ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرني الدمشقي ، ، ت ٧٧٤ هـ ، المحقق : محمود حسن ، دار الفكر، بيروت ،لبنان، ط١٠ ، ١٤١٣ هـ، العصور الجديدة ٧٨١هـ – ١٩٩٤م .
١٥- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، **المؤلف** :محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي المتوفى:(٥١٠هـ)، **المحقق** :عبد الرزاق المهدي، **الناشر** : دار إحياء التراث العربي – بيروت، **الطبعة** :الأولى، ١٤٢٠ هـ
١٦-تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

١٧-تفسير محاسن التأويل، محمد جمال الدين ابو الفرج بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح ابن اسماعيل بن ابي بكر المعروف القاسمي ، توفي سنة ١٩١٤م.
١٨-تفسير ابو السعود محمد بن محمد العمادي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ط – ٤ ،١٩٩٤م.
١٩- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس أحمد بن محمد الهدي بن عطية بن عجية الحسين الادريسي الشاذي الناسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ٢ ، ٢٠٠٢ م ، ١٤٢٣ هـ.
٢٠- التفسير الواضح ، للمؤلف الحجازي محمد محمود ، دار الجيل الجديد ، بيروت. زهرة التفاسير – ج١ ، ص٤٣٨،محمد ابو زهرة ، دار الفكر العربي، بيروت ، لبنان.
٢١-ايسر التفاسير ، لكلام العلي الكبير ، جابر بن موسى بس عبدالقادر بن جابر بن ابو بكر الجزائري ، مكتبة العلوم والبحوث ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، ط ٥ ، ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م .
٢٢-التحرير والتنوير، العروف بتعين ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي(ت ١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي ،بيروت ،لبنان، ط ١ ، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
٢٣- في ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٤٥٥، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة ، ط ١١ ، ١٤٠٥ هـ.
٢٤-التفسير القرآني للقرآن، المؤلف: عبدالكريم يونس الخطيب ، المتوفى :بعد (١٣٩٠) هـ ، دار الفكر العربي – القاهرة .
٢٥-التفسير الوسيط ، د وصية مصطفى الزحيلي ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ – ١٤٢٢هـ .
٢٦- تفسير الشعراوي – الخواطر، المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، عدد الأجزاء: ٢٠، (ليس على الكتاب الأصل – المطبوع – أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام ١٩٩٧ م)
٢٧- فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له

وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت
٢٨- التفسير المنير للزحيلي ، د. وهبه الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١ ، ١٩٩١م .
٢٩- تفسير ابن أبي العز، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ). جمع ودراسة: شايع بن عبده بن شايع الأسمري،الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: نشر في العددان: ١٢٠ – (السنة ٣٠) – (١٤٢٣هـ)، ١٢١ – (السنة ٣٥) – (١٤٢٤هـ)
٣٠- تفسير الوسيط للقرآن الكريم ،ج ٨- ص ٣٣٥ ، المؤلف: محمد سيد الطنطاوي، دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة- القادرة .ط١.
٣١- الدر المنثور في تفسير المأثور ، للأمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، دار المعرفة ، بيروت.
٣٢- الإتقان في علوم القرآن ، ج٢ ص٣٤٦، لعبد الرحمن بن ابي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، تحقيق ، محمد ابو الفضل ابراهيم ، الهيئة المصرية العاصمة للكتاب ، القاهرة ، مصر، ١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٤ م.
٣٣- معاني القرآن وإعرابه، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .
٣٤- الموسوعة القرآنية المتخصصة، المؤلف: مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، عام النشر: ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.
٣٥- مجاز القرآن، المؤلف: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري (المتوفى: ٢٠٩هـ)، المحقق: محمد فواد سزگين، الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـ.
٣٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م
٣٧- المستدرك على الصحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠.

٣٨- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣ .
٣٩- كتاب الزهد الكبير، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٦ .
٤٠- إتمام فتح الخلاق في مكارم الأخلاق، المؤلف: دجوي، أحمد سعيد ،الناشر: العصماء.
٤١- مجمع الامثال لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني ،ط ٦ ،دار النهضة .ت /محمد محي الدين.
٤٢- لسان العرب (٢٢/١٣)، مادة مثل لمحمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري ، دار صادر ، بيروت السلفية ، مصر ، ط٢ _١٣٩٩هـ.
٤٣- معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن حنبل بن فارس بن زكريا، تحقيق عبدالله محمد بن اكرم ، دار الفكر ، سوريا ،دمشق،(١٣٩هـ – ١٩٧٩ م).
٤٤- الأمثال للمؤلف : زيد بن عبدالله بن مسعود بن رفاعة ، ابو الخير الهاشمي (المتوفى: بعد ٤٠٠ هـ) ، دار سعد الدين، دمشق، ط١ ، ١٤٢٣ هـ .
٤٥- القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ، لبنان.
٤٦- المستقصى في أمثال العرب، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٨٧م.
٤٧- التبيان في أمثال القرآن ، إعداد محمد بن صلاح الشوارقي.
٤٨- شرح المقال في كتاب الامثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق عبد الحميد قطاش ، الطبعة الاولى ، دار المأمون ، دمشق.